سورة الفجر

مكية، وآياتها ٣٠ وقيل: ٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾

أقسم بالفجر كما أقسم بالصبح في قوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر: ٣٤]، ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير: ١٨]، وقيل: بصلاة الفجر. وأراد بالليالي العشر: عشر ذي الحجة. فإن قلت: فما بالها منكرة من بين ما أقسم به؟ قلت: لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي: العشر بعض منها. أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها. فإن قلت: فهلا عرفت بلام العهد، لأنها ليال معلومة معهودة؟ قلت: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير؛ ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة، ليكون الكلام أبعد من الألغاز والتعمية، وبالشفع والوتر: إما الأشياء كلها شفعها ووترها، وإما شفع هذه الليالي ووترها. ويجوز أن يكون شفعها يوم النحر، ووترها يوم عرفة، لأنه تاسع أيامها وذاك عاشرها، وقد روي عن النبي ﷺ أنه فسرهما بذلك (١٧٤٨). وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه، وذلك قليل الطائل، جدير بالتلهي عنه، وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليل على العموم ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ إذا يمضي؛ كقوله:

١٧٤٨ ـ رواه النسائي في تفسيره (٢/ ٥٢١) رقم (٦٩١، ٦٩٢).
وأحمد في مسنده (٣/ ٣٢٧) والبزار رقم (٢٢٨٦ ـ كشف) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٢٠) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي كلهم من حديث جابر وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٣٧):
«رواه البزار وأحمد ورجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة».
وعزاه الزيلعي (٤/ ٢٠٥) للبيهقي في الشعب وقال: وهذا مسند لا بأس برجاله» ا .هـ.
قال الحافظ: قلت: التعليل من كلام الزمخشري. وأصله عند النسائي وأحمد والبزار والحاكم والبيهقي في الشعب الثالث والعشرين من رواية خير بن نعيم عن أبي الزبير عن جابر. قال: لا نعلمه إلا بهذا الإسناد. انتهى.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ [المدثر: ٣٣]، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾﴾ [التكوير: ١٧]، وقرئ: والوتر، بفتح الواو، وهما لغتان كالحبر والحبر في العدد، وفي الترة: الكسر وحده[1]. وقرئ: الوتر، بفتح الواو وكسر التاء: رواها يونس عن أبي عمرو، وقرئ: والفجر، والوتر، ويسر: بالتنوين، وهو التنوين الذي يقع بدلاً من حرف الإطلاق. وعن ابن عباس: وليال عشر، بالإضافة يريد: وليال أيام عشر. وياء ﴿يَسۡرِ﴾ تحذف في الدرج، اكتفاء عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة، وقيل: معنى «يسري» يسري فيه ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما أقسمت به من هذه الأشياء ﴿قَسَمٞ﴾ أي مقسم به ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ يريد: هل يحق عنده أن تعظم بالإقسام بها. أو: هل في إقسامي بها إقسام لذي حجر، أي: هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه. والحجر: العقل؛ لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي، كما سمي عقلا ونهية؛ لأنه يعقل وينهى. وحصاة: من الإحصاء وهو الضبط وقال الفراء: يقال: إنه لذو حجر، إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها؛ والمقسم عليه محذوف وهو «ليعذبن» يدل عليه قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ إلى قوله: ﴿فَصَبَّ ٢/ ٢٦٢ ب عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ١٣].

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾﴾

قيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: عاد، كما يقال لبني هاشم: هاشم. ثم قيل للأوّلين منهم عاد الأولى وإرم، تسمية لهم باسم جدّهم، ولمن بعدهم: عاد الأخيرة. قال ابن الرقيات [من المنسرح]:

مَجْدًا تَلِيدًا بَنَاهُ أَوَّلُهُ ... أَدْرَكَ عَادًا وَقَبْلَهَا إِرَمَا[2]

فإرم في قوله ﴿بِعَادٍ إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد، وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة. وقيل:

---

(١) قوله: «وفي الترة الكسر وحده» في الصحاح «الموتور» الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه؛ تقول وتره وترًا وترة، وكذلك: وتره حقه، أي: نقصه. (ع)

(٢) لابن الرقيات، يصف رجلاً بأنه حاز مجدًا تليدًا. أي: قديمًا. وشبهه بالحصن المبني على طريق المكنية وبناه تخييل، أي شرعه وجدده أوله، أي: آباؤه الأولون: أدرك هذا المجد من جدود الممدوح عادًا وإرمًا قبله أي: قبل عاد، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، فعقب عاد هذا: هم عاد الأولى، ومن بعدهم: عاد الثانية.
البحر ٨/ ٤٦٦، الدر المصون ٦/ ٥١٩.

﴿إِرَمَ﴾ بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها ويدل عليه قراءة ابن الزبير: «بعاد إرم»، على الإضافة وتقديره: بعاد أهل إرم، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضًا للتعريف والتأنيث. وقرأ الحسن: «بعادَ أرمَ»، مفتوحتين. وقرئ: بعاد إرم، بسكون الراء على التخفيف، كما قرئ: «بورقكم» [الكهف] وقرئ: بعاد إرم ذات العماد، بإضافة إرم إلى ذات العماد. والإرم: العلم، يعني: بعاد أهل أعلام ذات العماد. و﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ اسم المدينة وقرئ «بعاد إرمّ ذات العماد» أي جعل الله ذات العماد رميمًا بدلاً من فعل ربك؛ وذات العماد إذا كانت صفة للقبيلة، فالمعنى: أنهم كانوا بدويين أهل عمد، أو طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة ومنه قولهم: رجل معمد وعمدان: إذا كان طويلاً. وقيل: ذات البناء الرفيع، وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى: أنها ذات أساطين. وروي أنه كان لعاد ابنان: شداد وشديد؛ فملكا وقهرا، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد، فملك الدنيا ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة فقال أبني مثلها، فبنى إرم في بعض صحاري عدن في ثلثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة: وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت. وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة؛ ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته؛ فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبد الله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثم، وبلغ خبره معاوية فاستحضره، فقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له؛ ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال: هذا والله ذلك الرجل (١٧٤٩) ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ مثل عاد ﴿فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ عظم أجرام وقوّة، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع، وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحملها فيلقيها على الحي فيهلكهم، أو لم يخلق مثل مدينة شدّاد في جميع بلاد الدنيا. وقرأ ابن الزبير: «لم يخلق مثلها»، أي: لم يخلق الله مثلها ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾ قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتًا، كقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء: ١٤٩] قيل: أول من نحت الجبال والصخور والرخام: ثمود، وبنوا ألفًا وسبعمائة مدينة كلها من

١٧٤٩ ـ قال الزيلعي (٤/٢٠٦) رواه الثعلبي من طريق عثمان بن سعيد الدارمي: أنا عبد الله بن صالح، ثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران، عن وهب بن منبه، عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت.... إلى آخره.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي عن عبد الله بن أبي صالح، عن أبي لهيعة عن خالد بن أبي عمران، عن وهب بن منبه، عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت فذكره مطولاً. قلت: «آثار الوضع عليه لائحة». انتهى.

الحجارة. قيل له: ذو الأوتاد، لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعذيبه بالأوتاد، كما فعل بماشطة بنته وبآسية ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟﴾ أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذم. ويجوز أن يكون مرفوعًا على: هم الذين طغوا أو مجرورًا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون يقال: صب عليه السوط وغشاه وقنعه، وذكر السوط: إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به. وعن عمرو بن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطًا كثيرة، فأخذهم بسوط منها. المرصاد: المكان الذي يترتب فيه الرصد «مفعال» من رصده؛ كالميقات من وقته. وهذامثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد. وعن عمرو بن عبيد رحمه الله أنه قرأ هذه السورة عند بعض الظلمة حتى بلغ هذه الآية فقال: إنّ ربك لبالمرصاد يا فلان، عرّض له في هذا النداء بأنه بعض من توعد بذلك من الجبابرة، فللّه درّه أيُّ أسد فرّاس كان بين ثوبيه، يدق الظلمة بإنكاره، ويقصع أهل الأهواء[1] والبدع باحتجاجه.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

فإن قلت: بم اتصل قوله[2] ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾؟ قلت: بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ كأنه قيل: إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعي للعاقبة، وهو مرصد بالعقوبة للعاصي؛ فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها.

فإن قلت: فكيف توازن قوله، فأما الإنسان، ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾[3] وحق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد أما وأما، تقول: أما الإنسان فكفور، وأما الملك فشكور. أما إذا أحسنت إلى زيد فهو محسن إليك؛ وأما إذا أسأت إليه فهو مسيء إليك؟ قلت: هما متوازنان من حيث إنّ التقدير: وأما هو إذا ما ابتلاه ربه؛ وذلك أن قوله ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ خبر المبتدأ الذي هو الإنسان، ودخول الفاء لما في «أما» من معنى

---

(١) قوله: «ويقصع أهل الأهواء» في الصحاح «قصعت الرجل» صغرته وحقرته. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: كيف اتصل قوله (فأما الإنسان) بما قبله... إلخ» قال أحمد: قوله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة ولا يأمره إلا بها: فاسد الصدر، مبني على أصله الفاسد، سليم العجز.

(٣) قال محمود: «فإن قلت كيف توازن قوله: (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه) وقوله: (وأما إذا ما ابتلاه) قال أحمد: يريد أنه صدر ما بعد أما الأولى بالإسم، وما بعد الثانية بالفعل. ومقصود السائل أن يكونا مصدرين: إما باسمين أو بفعلين.

الشرط، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير، كأنه قيل: فأما الإنسان فقائل ربي أكرمن وقت الابتلاء، فوجب أن يكون ﴿فَيَقُولُ﴾ الثاني خبر لمبتدإ واجب تقديره. فإن قلت: كيف سمى كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء؟ قلت: لأنّ كل واحد منهما اختبار للعبد، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر؟ وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع؟ فالحكمة فيهما واحدة. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فإن قلت: هلا قال: فأهانه وقدر عليه رزقه، كما قال فأكرمه ونعمه؟ قلت لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلاً من غير سابقة[١]، وأما التقدير فليس بإهانة له؛ لأنّ الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة، ولكن تركًا للكرامة، وقد يكون المولى مكرمًا لعبده ومهينًا له، وغير مكرم ولا مهين؛ وإذا أهدى لك زيد هدية قلت: أكرمني بالهدية، ولا تقول: أهانني ولا أكرمني إذا لم يهد لك. فإن قلت: فقد قال: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ فصحح إكرامه وأثبته، ثم أنكر قوله: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ وذمّه عليه، كما أنكر قوله: ﴿أَهَٰنَنِ﴾ وذمّه عليه.

قلت: فيه جوابان، أحدهما: أنه إنما أنكر قوله ربي أكرمن وذمّه عليه؛ لأنه قال على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبته، وهو قصده إلى أنّ الله أعطاه ما أعطاه إكرامًا له مستحقًا مستوجبًا على عادة افتخارهم وجلالة أقدارهم عندهم، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[٢] [القصص: ٧٨]، وإنما أعطاه الله على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة مما لا يعتدّ الله إلا به، وهو التقوى دون الأنساب والأحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها.

والثاني: أن ينساق الإنكار والذمّ إلى قوله: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ يعني أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله وإكرامه، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هوانًا وليس بهوان، ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾[٣] وقرئ: فقدر،

---

(١) قال محمود: «فإن قلت هلا قال فأهانه وقدر عليه رزقه، كما قال فأكرمه ونعمه؟ وأجاب بأن البسط إكرام من الله تعالى للعبد من غير سابقة» قال أحمد: «قيد زائد تفريعًا على أصله الفاسد» والحق أن كل نعمة من الله كذلك.

(٢) قال محمود: «فإن قلت: فقد قال فأكرمه فصحح إكرامه وأثبته، ثم أنكر قوله ربي أكرمن وذمه عليه كما أنكر قوله ربي أهانن وذمه عليه، وأجاب بأمرين، أحدهما أن المنكر عليه اعتقاده أن إكرام الله تعالى له عن استحقاق لمكان نسبه وحسبه وجلالة قدره، كما كانوا يعتقدون الاستحقاق بذلك على الله، كما قال: إنما أوتيته على علم» قال أحمد: والقدري لا يبعد عن ذلك، لأنه يرى أن النعيم الأعظم في الآخرة حق للعبد على الله واجب له عليه ليس بتفضل ولا ممنون.

(٣) قال محمود: «الثاني أن ينساق الإنكار والذم إلى قوله: (ربي أهانن) بمعنى أنه إذا تفضل عليه بالخير اعترف بتفضل الله تعالى، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هوانًا وليس بهوان، ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله فأكرمه» قال أحمد: كأنه يجعل قوله (فأكرمه) توطئة لذمه على قوله =

بالتخفيف والتشديد وأكرمن، وأهانن: بسكون النون في الوقف، فيمن ترك الياء في الدرج مكتفيًا منها بالكسرة.

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن قوله ثم قال: بل هناك شرّ من هذا القول[1]. وهو: أنّ الله يكرمهم بكثرة المال، فلا يؤدّون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرّة، وحض أهله على طعام المسكين ويأكلونه أكل الأنعام، ويحبونه فيشحون به وقرئ: يكرمون، وما بعده بالياء والتاء. وقرئ: تحاضون، أي: يحض بعضكم بعضًا: وفي قراءة ابن مسعود: ولا تحاضون، بضم التاء، من المحاضة ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ ذا لمّ وهو الجمع بين الحلال والحرام؛ قال الحطيئة [من الطويل]:

إِذَا كَانَ لَمًّا يَتْبَعِ الذَّمُّ اَهْلَهُ فَلاَ قَدَّسَ الرَّحْمٰنُ تِلْكَ الطَّوَاحِنَا[2]

يعني: أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم. وقيل كانوا لا يورّثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم. وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة، وهو عالم بذلك فيلم في الأكل بين حلاله وحرامه. ويجوز أن يذمّ الوارث الذي ظفر بالمال سهلا مهلا، من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه، ويأكله أكلا واسعًا جامعًا بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الورّاث البطالون ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ كثيرًا شديدًا مع الحرص والشره ومنع الحقوق.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا

= (أهانن) لا أنه مذموم معه.

(١) قال محمود: «إنما أضرب عن الأول للإشعار بأن هنا ما هو أشر من القول الأول... إلخ» قال أحمد: وفي هذه الآية إشعار بإبطال الجواب الثاني من جوابي الزمخشري؛ فإنه جعل قوله: (أكرمن) غير مذموم، ودلت هذه الآية على أن المعنى أن للمكرم بالبسط بالرزق حالتين، إحداهما: اعتقاده أن إكرام الله له عن استحقاق. الثانية أشد من الأولى: وهي ألا يعترف بالإكرام أصلًا، لأنه يفعل أفعال جاحدي النعمة، فلا يؤدي حق الله الواجب عليه في المال من إطعام اليتيم والمسكين.

(٢) للحطيئة. واللم: الجمع بين الحلال والحرام من غير فرق. وروي «ربه» بدل «أهله» والطواحن: الأضراس. وتسمى: الأرحاء جمع رحى، يقول: إذا كان الأكل جمعًا، أي: ذا جمع بين الخبيث والطيب يتبع صاحبه الذم، فلا طهر الله تلك الأضراس التي تطحن ذلك المأكول؛ والدعاء عليها: دعاء على صاحبها.
البحر المحيط ٨/٤٦٦، الدر المصون ٦/٥٢٢.

﴿يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم. ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرّطوا فيه حين لا تنفع الحسرة؛ و«يومئذ» بدل من ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وعامل النصب فيهما يتذكر ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ دكًا بعد دك. كقوله: حسبته بابا بابا، أي: كرّر عليها الدك حتى عادت هباء منبثا.

فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة.

قلت: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه: مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفًا بعد صف محدقين بالجن والإنس ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] وروي: أنها لما نزلت تغيّر وجه رسول الله ﷺ وعرف في وجهه حتى اشتدّ على أصحابه، فأخبروا عليًا رضي الله عنه، فجاء فاحتضنه من خلفه وقبله بين عاتقيه؛ ثم قال: يا نبيّ الله، بأبي أنت وأمي ما الذي حدث اليوم، وما الذي غيّرك؟ فتلا عليه الآية. فقال علي له: كيف يجاء بها؟ قال: يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع (١٧٥٠). أي: يتذكر ما فرّط فيه، أو يتعظ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ومن أين له منفعة الذكرى؟ لا بد من تقدير حذف المضاف، وإلا فبين: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾، وبين ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ تناف وتناقض ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ هذه، وهي حياة الآخرة، أو وقت حياتي في الدنيا، كقولك: جئته لعشر ليال خلون من رجب؛ وهذا أبين دليل على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقًا بقصدهم وإرادتهم، وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصي، كمذهب أهل الأهواء[1] والبدع، وإلا فما معنى التحسر؟ قرئ بالفتح: يعذب ويوثق، وهي قراءة رسول

١٧٥٠ ـ رواه الواحدي (٤/ ٤٨٥) في الوسيط وعزاه الزيلعي (٤/ ٢٠٦) للثعلبي وابن مردويه في تفسيريهما كلهم من طريق عطية عن أبي سعيد به وأتم منه.
وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طريق عطية، عن أبي سعيد به وأتم منه. انتهى.

---

(١) قوله: «كمذهب أهل الأهواء» إن كان المراد بهم أهل السنة لقولهم بأن الله هو الخالق لفعل العبد فهم يثبتون له الاختيار فيه؛ لأنهم يثبتون له الكسب فيه وإن كان المراد بهم من قال بالجبر المحض وهم القائلون بأن العبد لا دخل له في فعله أصلًا، بل هو كالريشة المعلقة في الهواء، فكلامه مسلم =

الله ﷺ. وعن أبي عمرو أنه رجع إليها في آخر عمره. والضمير للإنسان الموصوف. وقيل: هو أبيّ بن خلف أي: لا يعذب أحد مثل عذابه، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه؛ لتناهيه في كفره وعناده، أو لا يحمل عذاب الإنسان أحد، كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] وقرئ بالكسر، والضمير لله تعالى، أي: لا يتولى عذاب الله أحد؛ لأنّ الأمر لله وحده في ذلك اليوم. أو للإنسان، أي: لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ﴾ على إرادة القول، أي: يقول الله للمؤمن: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ﴾ إمّا أن يكلمه إكرامًا له كما كلم موسى صلوات الله عليه، أو على لسان ملك. و﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآمنة التي لا يستفزّها خوف ولا حزن، وهي النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك، ويشهد للتفسير الأوّل، قراءة أبيّ بن كعب: «يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة».

فإن قلت: متى يقال لها ذلك؟ قلت: إمّا عند الموت. وإمّا عند البعث، وإمّا عند دخول الجنة. على معنى: ارجعي إلى موعد ربك ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أوتيت ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عند الله ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾ في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلكهم ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ معهم، وقيل: النفس الروح. ومعناه: فادخلي في أجساد عبادي. وقرأ ابن عباس: «فادخلي في عبدي»، وقرأ ابن مسعود: «في جسد عبدي». وقرأ أبيّ: «ائتي ربك راضية مرضية، ادخلي في عبدي» وقيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب. وقيل: في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة، فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحوّل وجهي نحو قبلتك، فحوّل الله وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوّله، والظاهر العموم.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نورًا يوم القيامة» (١٧٥١).

١٧٥١ ـ تقدم برقم (٣٤٦) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بإسنادهم إلى أبي بن كعب. انتهى.

= لظهور بطلان مذهبهم. (ع)